



خطبة صلاة الجمعة 10/6/2022 للشيخ الطبيب محمد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

### (منزلة المراقبة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبي اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿وَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: 235].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب: 52].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: 14].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ [غافر: 19] قال المفسرون خائنة الأعين هي مسارقة النظر إلى ما نهى الله.

### أيها الإخوة:

في السير إلى الله تعالى يمر السالكون بمنازل، منزلة تلو الأخرى، تجتمع حيناً وتتتابع حيناً آخر، ومن منازل السائرين منزلة المراقبة، وهي منزلة تصحب السالك منذ حلوله بها إلى منتهى الأجل، وخطبة اليوم عنها.

المراقبة هي يقين العبد باطلاع الحق سبحانه وتعالى عليه، أو هي مراعاة القلب لنظر الرب في كل خطرة وخطوة.

وهي ثمرة علم العبد بأن الله سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله، ومطلع على عمله كل وقت وكل لحظة، وكل نفس وكل طرفة عين.

وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر سبب لحفظ حركات الظواهر، فمن راقب الله في سره، حفظه الله في حركاته في سره وعلايته.

### وللمراقبة ثلاث درجات:

أولها أن يراقب العبد ربه، وثانيها أن يراقب العبد أن الله يراقبه، وثالثها أن يراقب العبد مواضع رضا الله وسخطه.

- **فالأولى أن يراقب العبد ربه:** كأنه ينظر إليه وهي أعلى درجات المراقبة وفيها وفي الدرجة التي تليها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال الإمام العارف عبد الله بن المبارك لرجل: راقب الله تعالى، فسأله عن تفسيره فقال: كن أبداً كأنك ترى الله عز وجل.

مرّ عبد الله بن عمر براحٍ فاستسقاها لبناً فسقاها ثم طلب إليه أن يذبح لهم شاة فاعتذر بأنه لا يملكها، فقال بالثمن، قال إن صاحبها أذن لي بسقي الناس من لبنها ولم يأذن لي ببيعها، فأراد أن يختبره فقال اذبحها وخذ ثمنها وقل لصاحبها أكلها الذئب! فصرخ الراعي: فأين الله! فبكى عبد الله وجعل يقول فأين الله!

إنها أعلى درجات المراقبة أن تراقب الحق سبحانه وتعالى فتكسبك هذه المراقبة كل خير وتدفع عنك كل سوء.

أحيل مدير دائرة عامة يراجعها كبار التجار والصناع على التقاعد، احتفى به موظفوه وودعوه مكرمين له وشاكرين حسن إدارته، طلب المدير الجديد زيارته في بيته فرحب به المدير المتقاعد، ولما زاره رأى بيتاً بسيطاً وأثاثاً متواضعاً، فقال له: توقعت أن أرى قصرًا ومالاً لحساسية منصبك الوظيفي السابق وارتباطه بكبار التجار والصناع، ولكنني أرى غير ذلك! هزّ المدير المتقاعد برأسه مبتسماً وقال صدقت لولا مراقبتي لله لكنت رأيت الذي قلت!

إنها أعلى درجات المراقبة أن تراقب الحق سبحانه وتعالى فتكسبك هذه المراقبة كل خير وتدفع عنك كل سوء.

قال الإمام الغزالي: (ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به، وقد يمر على ابنه مثلاً فلا يكلمه؛ ولا تستبعد

هذا، فإنك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة لملوك الأرض حتى إنّ خدام الملك قد لا يحسون بما يجري عليهم في مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم).

قال بعض الصالحين: مررت بقوم يتسابقون بالرمي ورجلٌ جالساً وحده فتقدمت إليه فأردت أن أكلمه فقال ذكر الله تعالى أشهى! فقلت: وحذك! فقال: معي ربي وملكاي، فقلت: من سبق من هؤلاء؟ فقال: من غفر الله له! فقلت: أين الطريق؟ فأشار نحو السماء وقام ومشى وقال: أكثر خلقك شاغلٌ عنك!

إنها أعلى درجات المراقبة أن تراقب الحق سبحانه وتعالى فتكسبك هذه المراقبة كل خير وتدفع عنك كل سوء.

أخرج البزار بسند ضعيف عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي رجلاً يقال له حارثة في بعض سكك المدينة فقال: **"كيف أصبحت يا حارثة؟"**. قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: **"إن لكل إيمان حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟"** قال: أصبحت وكأني بعرش ربي بارزاً، وكأني بأهل الجنة في الجنة يتنعمون فيها، وكأني بأهل النار في النار يعذبون، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **"أصبحت فالزم، مؤمن نور الله قلبه"**.

إنها أعلى درجات المراقبة أن تراقب الحق سبحانه وتعالى فتكسبك هذه المراقبة كل خير وتدفع عنك كل سوء.

- وثاني درجات المراقبة: مراقبة نظر الحق إليك: فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وهذه المراقبة تورث الحياء من الله تعالى وتصحيح الأعمال وفق الشرع وتحديد التوبة كلما زلت القدم، فصاحب هذه المراقبة يدع المعاصي استحياءً من ربه وهيباً له أكثر مما يدعها خوفاً من عقوبته. قال أبو حفص النيسابوري: إذا جلست للناس فكن واعظاً لقلبك ونفسك، ولا يغرّك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك، والله يراقب باطنك. وقال رجل للجنيد: بم أستعين على غض البصر؟ فقال: بعلمك أنّ نظر الله إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه.

خلوتُ ولكن قلَّ عليّ رقيبُ

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوماً فلا تقل

ولا أنّ ما تُخفيه عنه يغيبُ

ولا تحسبنَّ الله يغفلُ ساعةً

رأى محمد بن المنكدر رجلاً واقفاً مع امرأة يكلمها فقال: إن الله يراكما! فأصابهما الحياء وانصرفا. قال سهل بن عبد الله التستري: كنت أنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار فقال لي يوماً: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك: "الله معي، الله ناظر إليّ، الله شاهدي"، فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته، فقال: قل في كل ليلة سبع مرات، فقلت ذلك ثم أعلمته، فقال: قل ذلك كل ليلة إحدى عشر مرة، فقلت فوق في قلبي حلاوته، فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة في سري، ثم قال لي خالي يوماً: يا سهل! من كان الله معه وناظراً إليه وشاهده أيعصيه؟! إياك والمعصية!

أول درجات المراقبة أن يراقب العبد ربه، وثانيها أن يراقب العبد أن الله يراقب.

- وثالث درجات المراقبة مراقبة مواقع رضا الرب، ومساخطه في كل حركة: فإنّ الله تعالى على العبد في كل وقت فرضاً أو ندباً أو إباحة أو تحريماً.

فالفرض شيء أمر العبد بفعله، والتحريم شيء أمر العبد بتركه، والندب شيء حثّ الشارع عليه وهو المسابقة بخير يقرب إلى الله عزّ وجلّ، والمباح شيء فيه صلاح الجسم والقلب. فينظر العبد المراقب لمواقع رضا الرب ومساخطه في أوقاته كلها الفرض ليأخذه والندب ليأخذ منه والمباح ليتقوى به على سابقه، والحرام ليتركه.

وعلامه هذه المراقبة: إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله، وهي مورثة لرضا الله وجنته.

### أيها الإخوة:

أفضل الطاعات مراقبة الله على الدوام، ومن عمّر باطنه بدوام المراقبة وظاهره باتباع السنة وعود نفسه أكل الحلال لم تُخطئ له فِراسة.

ودوام المراقبة يورث الإخلاص ودوام الذكر وامتنال الأمر واجتناب النهي، ويوصل الإنسان والمجتمع إلى سعادة الدارين.

والحمد لله رب العالمين